على ثلوج (حِزرين) (*)

للأستاذ علي الطنطاوي

— ٣ —

ولو استجاب لهما الكون فثبت الفلك ، ووقف الزمان ، لكانا أسعد سعيدين عرفتهما الأرض ، ولكن هيهات ... فالفلك دوار ، والزمان سيار ، والأيام لا تستقر على حال ، ورب يوم يحمل محض السعادة ، يتبعه يوم يحمل محض الشقاء ، ورب فرح بالولادة والموت مترقب على بابه ، ومسرور بالوصل والهجر متربص على أعتابه ، ولو كشف للناس الغطاء لضحك باك ، وبكى ضاحك ، واستحالت مآتم أفراحاً وأفراح مآتم .

لقد غابا عن الدنيا في عناق لذّ تهون معه الدنيا وما عليها ، وتدنو به الآمال حتى لا مأمل بعده إلا أن يدوم ، ولكن الدنيا لا يدوم فيها شيء .

لقد وقف هذا الطفل الجبار ، الذي ولد بلا حمل ، ونما بلا زمن ، يعبث بهما ، هذا الطفل الذي اسمه الحب ... فلما شبع من العبث ، نام ، وترك الفتاة لشياطين اللهو والترف والغنى تلعب بها ، كما تلعب بكل فتاة في الدنيا ، نام في صدرها الحب أو شبع .

ولقد كانت تستطيع أن تجمع الحب والغنى ، والعاطفة والمال ، لولا أن هذا الطفل كان (على جبروته) أعمى لا يبصر ، أمسك بيد ليلى فانقادت له وهي لا تشعر ، ثم جرّها وهو يتلمس طريقه في الظلام حتى إذا وقعت يده على أول رجل لقيه ، عقد قلبها بقلبه ، عقداً شيطانياً بلا شرع ولا عقل ، وقال لها : هذا هو الحبيب .

وكان أوّل رجل لقيه هاني ، هاني الذي لا يستطيع أن يصعد إليها ليعقد لها عقد الشريعة والعرف ، ولا تقدر أن تنزل هي إليه ، ولولا أن سيدي الشيخ رحمه الله أشفق عليه فحمله معه ، ما علقت به ولا علق بها ، ولا كان هذا القيد الذي ألقاها معاً في جحيم الدنيا .

أفرأيت كيف يعلق القدر سعادة الناس وشقاءهم بأوهى الأسباب ؟ .

حكمة إلهية تخفى عن أفهام البشر !

* * *

هذا هو الحب : ثوب راق تحمله المرأة وتمشي حتى تلقى رجلا ، فتخلعه عليه فتراه به أجمل الناس ، وتحسب أنه هو الذي كانت تبصر صورته من فُرَج الأحلام ، وتراها من ثنايا الأماني .

مصباح في يد الرجل ، يوجهه إلى أول امرأة يلقاها ، فيراها مشرقة الوجه بين نساء لا تشرق بالنور وجوههن ، فيحسبها خلقت من النور وخلقن من طين ، فلا يطلب غيرها ، ولا يهيم بسواها ، لا يدري أنه هو الذي أضاء محيّاها بمصباح حبه .

خدعة ضخمة من خدع الحياة ، خفيت عن المحبين كلهم من عهد آدم إلى هذا اليوم .

هذي هي حقيقة الحب ، فلا تسمعْ ما يهذي به المحبون !

* * *

لقد قبضت ليلى على الحاضر ، وهي عند الصخرة ، واطمأنت عليه ففكرت في المستقبل ، فقالت لهاني :

— ماذا تنتظر يا هاني ؟ اذهب فاضرب في الأرض وعد إليّ غنياً قوياً ، فاحملني معك إلى حيث تشاء .

— قال : كيف أفارقك يا ليلى ؟ كيف أعيش بعيداً عنك وأنت حياتي ؟ ولكن تعالي نذهب معاً .

ولو سمعت هذه الكلمة قبل لحظات ، قبل أن يشبع هذا (الطفل الجبار) وينام ، لوثب قلبها إلى لسانها ليقول نعم ؛ ولانطلقت معه إلى البحار لتخوضها ، والجبال لتقطعها ، ولكنها سمعتها والحب شبعان نائم ، فقالت له :

وكيف نعيش يا هاني ؟ ومن أين ننفق ؟ أننام على بلاط الشارع ؟ .

وتصور هذا المصير الذي لا يرضاه لها ، فذابت كبده رقة عليها ، وقال لها :

— إذن أبقى معك ، وأحتمل كل شيء من أجلك .

وسكتا ، وتكلم في أذنها شيطان اللهو والترف ، وغمز

(*) انظر العددين ٧٣١ ، ٧٣٢ .

فؤادها فنظرت تحتها ، فرأت أضواء تلمع فى أوائل الليل تبـدو من (عاليه) من بيت فارس أفندى طنوس الذى عاد إليها من أمريكا وفى جيبه نقد جديد لم يألفه أهلوها ، وعلى جسده ثياب لم يلبسوها ، وفى رأسه أفكار لم يعرفوها ، ولمحت بريقاً وحركة فعلمت أنها حملة من حفلاته الراقصة التى أرقصت أحاديثها صبايا الجبل وشبابه ، وأغضبت مشايخه وكهوله ، فاستطارت قلبها الرغبة فى رؤيتها ، وقالت :

— هذا ما أبتغى ، هذا ما أريد ، فتعال ، تعال نرها من قريب

وسحبته من يده وانطلقت به ، يقفزان كغزالين روعها الصياد ، لايشعران بقسوة الحجر ، ولا بصعوبة المنحدر ، ولا ببعد الطريق ، حتى وصلا (عاليه) وكانت دار فارس افندى التى بناها على الطراز الأمريكي أول دار فيها . فوقفا على صخرة أشرفا منها على الدار ، وطفقا ينظران .

رأيا الأبهاء قد حفلت بنساء يلبسن الثياب الكواشف من الحرير ، ورجال يلبسون السراويل الضيقة من (الجوخ) ، وهم يرقصون متخاصرين حيناً متباعدين حيناً ، ينقلون الخطا على رنات العيدان ، وسجعات المزامير ، ورأت الرجال يأخذون بأطراف أنامل الفتيات وهم يحنون لهن رؤوسهم ، ويبدون إعجابهم فتخيلت نفسها فى هـذا النعيم ، وتصورت هؤلاء الرجال ذوى السراويل الأمريكية الضيقة ينحنون لها ، وقابلت فى أعماق سرها بينهم وبين هانى ، ثم طردت هذا الخاطر ، وأبعدته عن حسها وحسبت أنها تخلصت منه ، لم تدر أن (الوسوسة) بدأت تنخر جذع السنديانة الضخم !

— قالت : هلم ندخل .

— قال : ومن أين ندخل يا ليلى ؟

— قالت : أريد أن ندخل . أريد أن ندخل

وألحت إلحاح الولد المدلل ، فأطاعها ، وهل يخالف العاشق معشوقه ؟ إنه لايستحق اسم العاشق حتى يرى كل نزوة للمعشوق حكمة بالغة ، وكل رغبة فرضاً لازباً ، وكل نقيصة كمالاً مابعده من كمال

وتسلق الجدار ، وهبط بها ، فلم تكد تستقر على أرض الحديقة ، حتى أحس بها كلبان كأنهما ذئبان ، فوثبا إليها فأنشبا فيها أنيابا من حديد ، ولم يستطع هانى دفعهما عنها ، وأسرع القوم إلى الصوت ، فرأوا المشهد ، رأوا فتاة ناضرة الصبا ، نقية الثياب ، وفتى قذراً ، فحملوها مكرمين ، وأمروا الخدم بالقبض على (اللص) ، فأمسكوا به ونزلوا عليه ضربا حتى هدوه ...

ثم جاؤوا به إلى البهو ، وكانت على كرسى والخادمات يعالجن جروح قدميها ، فاقترب منها فسألها أن تعود معه ، فاعتذرت بعجزها ، وزجره القوم ، فقام بينهم فاستنزل اللعنة عليهم ، وأوعدهم أنه سيرجع فيهدم هذه الدار على رؤوسهم ، ويمضى على الأرض وذهب . وبقيت هى فى الدار التى كانت تحن إليها

* * *

لا ، لا تلمها إن فكرت فى الترف ، ومدت عينيها إلى متع المال ، وهى عند الصخرة ، محراب الحب الأقدس ، وجرت هذا البلاء على حبيبها ، فإنه لابدّ للحبيبين من مشغلة فإن لم يجداها ، وظلا متعانقين العمر كله والحب بينهما ، فإنه يختنق .

وكيف يعيش الحبيبان إن اقتصرا على حديث الحب ؟ وهل فى لغة الحب إلا : (أحبك) و (أحبكِ) ؟ كررها عشرين مرة ثم ... وهل فى دنيا الحب إلا العناق والقبل ؟ فهل تمضى الحياة تقبل وتعانق ؟ ألا تملّ ؟ ألا تكل ؟ ألا تجوع ؟ ألا تظمأ ؟ إن حياة كهذه خير منها السجن ، وأحلى منها الموت ، وأولى بالعاشق أن يفر منها ولو إلى سقر .

* * *

ذاقت ليلى فى هذه الدار لذة الغنى ، وعرفت متعة الترف ، واستمرأت الرقص والغناء ، وتخطرت فى الثياب الغاليات ، وأسغت إلى خفيف الحرير من أردانها ، وإلى منمقات الألفاظ من القوم العلية من حولها ، فتملك شيطان الترف روحها فأفسدها كما تفسد جراثيم السل أجساد الأصحاء ، وشغلها بفقاقيع البحر عن جواهره ، وأبداها لها تلمع فى أشعة الشمس فحسبتها أكرم من الجواهر وأغلى ، وزاغت من بريقها عيناها فلم تعد ترى وجه الحب ، ولم تعد تذكر الحبيب ، ولبثت شهراً كاملا تتقلب فى الحرير ، وتمشى على الذهب وهو ينام على الجمر ، ويخطو على الشوك ، حتى تمّ شفاؤها ولم يبق بدٌّ من عودتها إلى المنزل ، فحملتها العربة الفخمة ، تجرها الجياد المطهمة حتى بلغت بها الباب ، فنزلت منها ، وأقبلت على دنياها التى لم تكن تعرف غيرها ولا تطمح إلى سواها . فرأتها